المحور الأول

زكى نجيب محمود (الإنسان)

obeikandl.com

زكى نجيب محمود (الإنسان) كما عرفته

د. عاطف العراقى

أقول بلا أدنى مبالغة إننى لا أجد فى عالمنا العربى من مشرقه إلى مغربه أستاذاً من أساتذة الفلسفة أثر فى تشكيل فكرى وعقلى ووجدانى بدرجة تقترب من الأثر الذى تركه أستاذ الجيل ورائد التنوير وعملاق الثقافة العربية فى عالمنا المعاصر الدكتور زكى نجيب محمود .

لقد كنت وما زلت أحاور نفسى قائلاً : هب أننى لم ألتق بالرجل والإنسان زكى نجيب محمود ، لقاء التلميذ بالأستاذ داخل قاعات الدرس بالجامعة وخارجها ، فهل كنت سأصل بمفردى إلى الأفكار التى أعتقد بصوابها وأرددها كل يوم وفى كل مناسبة ؟ ..

وسرعان ما أجيب قائلاً: لا ، لقد وصلت أفكار معلمى زكى نجيب إلى أعمق أعماق نفسى وخلجات عقلى ووجدانى، وبحيث لا أتردد فى القول اليوم مؤكداً على ما قلته منذ أكثر من عشر سنوات، بأننى أعتقد اعتقاداً لا يخالجنى فيه أدنى شك ، بأن بصمات الدكتور زكى نجيب محمود على فكرى وعقلى بصمات واضحة وبارزة .. ولابد لى من القول بأن زكى نجيب هو معلمى ورائدى .

وأشهد أن الرجل قام بصياغة عقلى صياغة جديدة تماماً . لقد عشت فى الريف سنوات طويلة وكنت أعتقد بوجود الأشباح والعفاريت وخاصة بين المقابر ، وكنت أخشى المرور بينها وخاصة أثناء الليل . وحين بدأ الدكتور زكى نجيب محاضراته أدركت أننى كنت فى وهم كبير وبدأت الدخول فى عالم جديد تماماً ، إنه العالم العلمى ، العالم القائم على التجربة وعلى العقل ، وليس العالم الذى كنت أعيش فيه ، عالم الأشباح والأرواح والعفاريت .

كنت أحاور الرائد والمعلم داخل قاعات الدرس حتى تكشفت أمامى مجالات جديدة تماماً لم أكن أعرف عنها شيئاً ولم يكن الرجل يضيق بحوارى وقد تعلمت منه فن الحوار ، الحوار الهادئ الذى يستند إلى العلم والمعرفة ولا يعتمد على الخطابة والبلاغة والإنشاء .

لم تصدر عن الرجل المعلم والإنسان كلمة نابية واحدة ، بل كان الحوار يستند إلى مجموعة

من افتراض الفروض ثم التوصل إلى مجموعة من النتائج التى تعد بالغة الأهمية ، والتى ظلت حتى اليوم محفورة فى عقلى ووجدانى ..

نعم إننى تعلمت منه أنه لابد من وجود أرضية مشتركة كأساس للحوار ، وإلا ستكون كمن يتكلم على موجة ، غير الموجة التى يتحدث عليها الآخر . وإذا اختلفت الموجة فإن الحوار سوف لا يكون مثمراً ، بل سيكون كحوار الطرشان ، والذين لا يسمع الواحد منهم ما يقوله الآخر .

ولم يكن وقت الدرس الجامعى كافياً للحوار مع الرائد والمعلم زكى نجيب محمود ، والاستزادة من علمه الذى وجدته بحراً على بحر ، فوجدت أنه من الضرورى أن أسعى إلى اللقاء بالرجل خارج قاعات الدرس وعلى وجه الخصوص فى منزله .

وقد سعدت بذلك سعادة بلا حدود .. سعادة قصوى .. وكنت أقول لنفسى : لقد تحقق أقصى ما أتمناه ، أن ألتقى بالمنارة العلمية الشاهقة الارتفاع .

ولم تنقطع الصلة العلمية بينى وبين أستاذى رغم عملى فترة من الزمان خارج القاهرة. لقد كانت الصلة العلمية تتمثل فى صور عديدة من بينها قراءة كل ما يكتبه زكى نجيب من الكتب والمقالات وكنت أرى أنها خير ما يهدى الإنسان فى حياته ، الإنسان فى كل زمان ومكان ، إذ أنها صادرة عن عقل مبدع ومعبرة عن ذكاء بغير حدود .

وبعد عملى بالجامعة أصبح الطريق ممهداً تماماً لأن ألتقى بالرجل وأجد لديه الإجابة عن العديد من الأسئلة والقضايا المثارة والتى كنت أطرحها على نفسى وأجد نفسى عاجزاً أمامها بسبب الضباب الذى يحيط بأكثر الآراء والتى يحسبها الإنسان الإجابة المقنعة عما يدور فى ذهنه من تساؤلات ، فى الوقت الذى قد تكون فيه بعيدة تماماً عن الصواب ، أكثر بعداً من المسافة بين الجن والإنس ، أو بين القطبين الشمالى والجنوبى أو بين المشرق والمغرب .

لقد وضع الرجل الإنسان الدكتور زكى نجيب محمود يدى على الطريق أو المنهج الذى على أساسه أستطيع الوصول إلى بر الأمان ، أستطيع التوصل بمقتضاه إلى الرأى الصائب وسط ضجيج الشهرة والطبل الأجوف .

كنت سعيداً حين وجدت أنه من الضرورى والواجب علىَّ أن أهدى إليه مؤلفاً من مؤلفاتى، وهو كتاب «ثورة العقل فى الفلسفة العربية» . ونظراً لأن زكى نجيب محمود يمثل خير تمثيل دور الأستاذ كما ينبغى أن يكون الأستاذ ، فإنه كان فى قمة السعادة حين علم بأن

هذا الكتاب «ثورة العقل» كان من أكثر الكتب انتشاراً بين القراء والمثقفين وبحيث تكررت طبعاته فى أوقات متقاربة ، بل كان أكثر منى سعادة . ألم أقل لكم أيها القراء الأعزاء بأن زكى نجيب محمود هو رائدى ومعلمى وأستاذى الذى أدين له بالفضل طوال حياتى وحتى يرث الله الأرض ومن عليها وإلى أبد الآبدين .

تعلمت من زكى نجيب محمود فى حوارى معه بمنزله ومن خلال قراءتى لأفكاره فى كتبه وما أعظمها وما أروعها ، العديد من الدروس من بينها رعاية الأستاذ لتلميذه . إن عطاء زكى نجيب لى يعد عطاء بغير حدود ، وقيامه بتشجيعى يقف الإنسان أمامه فى انبهار وإعجاب. فالصلة بينى وبين أستاذى لم تنقطع يوماً واحداً وكم كان يُطلب منه الكتابة فى بعض الموضوعات أو ترشيح من يراه مناسباً للكتابة ، فكان لا يتردد فى نصح من يطلبون منه ذلك أن يبادروا بالاتصال بى للكتابة وأخذ الرأى حول هذا الموضوع أو ذاك من الموضوعات التى تتعلق بقضايانا الفكرية والثقافية وما أكثرها . وكنت أقول لنفسى وأذكر له أيضاً فى لقائى به بمنزله : إن هذا يعد بالنسبة لى شرفاً لا أستحقه ، فأين علمى من علمه ، وأين فكرى من فكره؟ وكم كان يقول عنى إننى أعد امتداداً لفكره ومنهجه ، كما كان يقول إن بعض ما أفعله يذكره بما كان يفعله فى شبابه .

فهل نجد الآن فى مصر أستاذاً يفعل مثل ما فعل زكى نجيب فى مجال العلاقة بين الأستاذ والتلميذ ؟ لقد كان يقوم بتشجيعى وفتح الأبواب أمامى ، ولكنه لم يكن يتردد فى توجيه النقد إذا أدرك أنه يعد ضروريًّا لتوجيهى وتعديل مسارى ، قدمت له فى بداية عملى بالبحث الجامعى وكنت يومها طالباً من طلابه ، بحثاً عن الواحدية المحايدة عند سبينوزا ووليم جيمس وبرتراند راسل ، فقرأ البحث كلمة كلمة وكتب على البحث قائلاً : سياقك واضح يدل على فهمك للموضوع ولكن كان ينبغى أن تذكر المراجع عند كل صفحة . وكنت من جانبى سعيداً غاية السعادة لإعجابه بالبحث من جهة ، واهتمامه بتوجيه النقد إلىَّ من جهة أخرى .

وقد أدركت من خلاله أهمية القراءة ، القراءة الواعية المستمرة . ومن المؤسف أننا نعيش الآن وسط أشباه كتَّاب يكتبون أكثر مما يقرأون . لقد تعلمت منه أن الإنسان ينبغى أن يقرأ أكثر مما يكتب . وهذا درس من الدروس العظيمة ينبغى أن ينظر إليه أبناؤنا بعين الاعتبار. فمن يتأمل فى الإنتاج الفكرى الذى يصدر عن مطابعنا فى الزمن الذى نعيش فيه ، يدرك تمام الإدراك أن أكثره لا يستحق أن يقف عنده الإنسان ، وحينما كان يُطلب منى إبداء الرأى حول

كتاب من الكتب كنت أتذكر باستمرار دروس زكى نجيب محمود والتى تتبلور حول أمانة الكلمة وخطورة الكلمة المطبوعة ، وبعد قراءتى لأكثر ما يصدر عن مطابعنا العربية كنت أقول لها : إلى الجحيم -أيتها الكتب التافهة- وبئس المصير .

وقد تعلمت من زكى نجيب محمود أهمية أن يكون الإنسان متسلحاً بالشجاعة الفكرية ، وأهمية أن يكون الإنسان مثقفاً ، وأن التخصص فى علم من العلوم لا يعنى بالضرورة أن يكون صاحبه مثقفاً ؛ فالمثقف الحقيقى هو من يضيف إلى تخصصه اهتماماً بالمعرفة الإنسانية الشاملة من آداب وفنون وقضايا ثقافية وجمالية . أدركت من خلاله ضرورة أن يكون لكل فرد منا موقفه ، وأنه لابد أن يبادر بإعلان رأيه والدفاع عنه ، دون السخرية من آراء الآخرين. نعم تعلمت منه ذلك ، لأننى أدرك تماماً أن رائدنا زكى نجيب محمود قد خاض العديد من المعارك الفكرية والتى تعد على درجة كبيرة من الأهمية . لم تكن تلك المعارك من نوع المعارك التى تثار الآن ، المعارك المفتعلة والتى تكشف عن درجة كبيرة من التخلف العقلى ونقص فى الذكاء ، بل إنها كانت معارك تحتل درجة كبيرة من الأهمية وستظل أهميتها باقية أبد الدهر وبحيث نقول إننا لا نتصور تاريخاً فكريًّا لمصر المعاصرة إلا إذا قمنا بتسجيل كل أقوال زكى نجيب محمود حول تلك المعارك الفكرية ، فما أعظمها وما أروعها.

لقد أدركت من خلال الدروس التى تعلمتها من زكى نجيب محمود ، أهمية الاستفادة من الندوات الفكرية وعلى رأسها ندوة عباس محمود العقاد وخاصة أننى أعلم مقدار الحب الذى يكنُّه زكى نجيب للعقاد . لم أتخلف عن حضور ندوة من ندوات العقاد إلا فى بعض الحالات القليلة . ومن المؤسف أن أكثر من يتحدثون عن العقاد وندوته الفكرية الأسبوعية ، كان من النادر أن ألقى واحداً منهم . ألا يعد هذا دليلاً على الكذب الذى ساد أوساطنا الثقافية . ويشاء القدر أن أعمل بأسوان ثلاث سنوات لم أتخلف خلالها عن حضور ندوة من ندوات العقاد والتى كانت تتم مرتين كل أسبوع طوال شهر يناير من كل عام . لقد أدركت أهمية حضور ندواته من خلال حديث زكى نجيب محمود عنها .

وما يقال عن ندوة العقاد ، يقال عن غيرها من المؤسسات الفكرية الأكاديمية . فإن حديث الدكتور زكى نجيب عن الأب جورج قنواتى بكل احترام وتقدير ، أدركت من خلاله الدور العظيم والرائد للأب قنواتى مدير معهد الدراسات الشرقية للآباء الدومينكان بالقاهرة ، وكنت حريصاً على الاستفادة من مكتبة الدير والتى تعد على رأس مكتبات الشرق الأوسط

من حيث الدقة والنظام وشمول المعرفة . وقد قضيت بالدير خمس سنوات تلميذاً ومتعلماً وراغباً فى القراءة المستمرة (منذ عام ١٩٦٩ حتى عام ١٩٧٤م) .

لقد تكشفت لى عوالم جديدة -كما قلت- من خلال صلتى العلمية المستمرة بزكى نجيب محمود . لقد أدركت من خلاله أهمية العزلة والبعد عن المناصب الإدارية الزائفة . كان ينتهى من محاضراته بالجامعة وبعد دقائق قليلة يكون داخل منزله قارئاً متأملاً . لقد أثر هذا السلوك فى نفسى حتى الآن وخاصة بعد أن أصبح الناس غير الناس ، وندر وجود أخيار الناس أمام جحافل الأشرار .

وأكثر مواقفى من التراث قد تعلمتها من زكى نجيب محمود . وكنت بعد قراءتى لما يكتبه أتناقش معه وأدرك بعد المناقشة أن العيب -إذن- ليس فى التراث ، ولكن العيب فى الفهم الخاطئ للتراث . وكنت أطبق على هذه الحالة قول الفيلسوف الألمانى شوبنهور حين جاءته الأنباء بأن كتاباً من كتبه لم يجد قبولاً لدى القراء ، وتم بيعه ورقاً تالفاً لكى يستخدم فى حزم البضائع . لقد ذهب شوبنهور إلى القول بأن كتاباً مثل كتابه هذا يعد كمرآة إذا نظر فيها حمار، فهل نتوقع أن يرى فيها ملاكاً ، وهل إذا اصطدم رأس أجوف بكتاب ، أيكون الأجوف هو الكتاب؟ كلَّا ثم كلَّا ، إن الأجوف هو القارئ للكتاب .

ففى تراثنا مساحات مظلمة ، فى تراثنا كم هائل من الخرافات تزيد على عدد سكان الدول العربية ، ولكن لا يصح أن ننكر وجود النور والتنوير داخل بعض كتب التراث ، وهل يمكن أن نقلل من المساحات المضيئة عند إخوان الصفا وعند ابن رشد وعند أبى العلاء المعرى وابن الرومى والمتنبى ، أليست أقوال هؤلاء أفضل ألف مرة من الكلمات المتقاطعة التى نجدها عند أناس من أشباه الكتَّاب والأدباء فى تاريخنا المعاصر ، منهم من قضى نحبه ومنهم من لم يزل على قيد الحياة ، وقد قاموا بتسويد آلاف الصفحات التى تكشف عن جهلهم الفاضح ؟!

كنت أرجع إلى زكى نجيب محمود قبل إقدامى على القيام بأى عمل من الأعمال الفكرية، لأننى أعتقد أنه يمثل النور والضياء ، يمثل البوصلة الفكرية التى يجب أن يهتدى بها كل مشتغل بالفكر وقضاياه ، بالثقافة ومشكلاتها . وحينما طُلب منى إلقاء محاضرة عنه بقصر الثقافة بدمياط فى مناسبة مرور ثمانين عاماً على مولده ، سعيت إلى منزله للاستفسار منه عن بعض الإشكالات التى قد تثار عن طريق أسئلة الحاضرين ومن بينها علاقة الوضعية المنطقية بتجديد الفكر العربى ، أكد لى على ما كنت أعتقده من أنه لا تعارض بينهما وهذا على الخلاف

من أقوال أشباه الباحثين ، وقد حدث ما توقعته فقد جاءت أكثر الأسئلة حول هذه الإشكالية سواء فى محاضرتى عنه عام ١٩٨٥م ، أو فى عام ١٩٨٦م أثناء حفل تكريم هذا الرائد والأستاذ العظيم بدمياط وكان حاضراً حفل التكريم ، ولم تشهد دمياط فى تاريخها القديم والحديث حدثاً ثقافيًا مثل الحفل الذى تم يوم تكريم هذا الرائد والأستاذ العظيم .

وقد سعيت إلى منزله للتهنئة بجائزة المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بعد ذلك بأيام خاصة وأنه أول مصرى يحصل على تلك الجائزة الكبرى . ولا زلت أذكر قوله بأن منحه هذه الجائزة يدل تمام الدلالة على أن العروبة ثقافة قبل أن تكون سياسة .

تعلمت من زكى نجيب محمود ضرورة أن يهتم المثقف بقراءة الكتب الأدبية وكم توجد خصائص مشتركة تجمع بين الفكر الفلسفى والفكر الأدبى . نجد هذا عند القدامى أمثال المتنبى وأبى العلاء المعرى وابن الرومى وأبى حيان التوحيدى فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة ، وعند كل من يمثلون أدب التفسير وليس أدب التعبير ، ونجده عند المحدثين من أمثال زكى نجيب محمود ، وول ديورانت صاحب «قصة الحضارة» وطه حسين الرائد الأول للتنوير فى مصرنا المعاصرة وعالمنا العربى من مشرقه إلى مغربه .

وكم كان الدكتور زكى نجيب حريصاً على أن يكشف لى الفرق بين الريادة الحقيقية والريادة الزائفة الكاذبة . إن طه حسين لم يصبح طه حسين إلا لأنه قرأ واجتهد وكافح حتى أصبح طه حسين ، وما فعله طه حسين نجده عند العقاد وغيرهما من الرواد الحقيقيين .

أما الآن فقد أصبحت القدوة غير القدوة والريادة غير الريادة . لقد أصبحت القدوة عند فتاة اليوم راقصة من الراقصات وأصبحت القدوة عند شباب اليوم لاعباً من لاعبى كرة القدم ؛ وإن هذا دليل على أننا نهتم بأرجلنا قبل أن نهتم بعقولنا .

ومن أعظم العبارات التى تتعلق بالمجال الذى نتحدث عنه الآن ، العبارة التى ذكرها زكى نجيب محمود فى آخر كتبه «حصاد السنين» ، إنها عبارة يجب أن نقف عندها ونتأمل فى كل كلمة من كلماتها . يقول زكى نجيب محمود (ص٤٢٤ ، ٤٢٥) :

«إن عندنا وعند أمثالنا ممن ضحلت معلوماتهم الصحيحة ، فقل وعيهم بنفس المقدار ، تكثر عملقة الأقزام ، إذ ليس على القزم الطموح برغم جهله وقصوره إلا أن يستخدم وسائل الإعلام لصالحه ، فما أسرع ما يتحول فى خيال الجماهير وفى وهم الحاكمين إلى عملاق حتى يتحول إلى أن يكون عالماً بغير علم ، أديباً بلا أدب ، أى شىء بغير شىء . وتتصل بعملقة

الأقزام عملية أخرى قد تستوجبها الظروف فيلجأ إليها القزم الطموح ، وهى عملية يجوز تسميتها كما أسماها صاحبنا ذات يوم فيما كتب : «قرصنة فى بحر الثقافة» . فالقراصنة يخطفون أموال ضحاياهم وبضائعهم لتصبح ملكاً لهم ، وكذلك يفعل قراصنة الثقافة فى حياتنا . فليس المهم عند أحدهم أن يقوم هو بالعمل ، بل المهم هو أن يضع عليه اسمه اغتصاباً» .

أذكر أننى تحدثت معه طويلاً حول هذه العبارة وذكرت له مجموعة من الأسماء المشهورة الذين يدخلون فى مجال القرصنة ، ولا أجد داعياً الآن لتحديد أسمائهم أو الإشارة إليهم . كنت أتحدث معه عن الأساليب الملتوية والتى من خلالها يحاول أشباه المثقفين التأكيد للجمهور بأنهم من المثقفين ، وذلك على الرغم من عدم وجود صلة بينهم وبين الثقافة من قريب أو بعيد ، فالثقافة منهم براء . كنت أتحدث معه عن ضرورة وجود محاكم للغش الفكرى ، وكأن بطوننا ومظهرنا الخارجى أهم لدينا نحن العرب من عقولنا وفكرنا ووجداننا .

نعم ، لقد استفدت من زكى نجيب استفادة بغير حدود .. استفدت منه مجموعة من الآراء حول قضية الأصالة والمعاصرة ، وأعتقد -تأكيداً على ما قاله توفيق الحكيم - بأننا لا نجد فى تاريخنا الفكرى المعاصر من اهتم بهذه القضية قدر اهتمام زكى نجيب . لقد كان من المفروض أن نتبنى أفكار الرجل ونخلص كل الإخلاص فى دراستها ، لأنها على رأس قضايانا الفكرية وتعد من أهم مطالبنا الفكرية ، ولكننا للأسف الشديد لم نفعل ذلك لأننا نعيش فى وادٍ غير ذى زرع .. وكما قال توفيق الحكيم - فى تحيته التى وجَّهها إلى زكى نجيب محمود فى عيد ميلاده الثمانين- إننا نعيش فى مجتمع الصراصير التى تتقاتل مع بعضها البعض، وليس فى مجتمع النمل الذى تتعاون فيه كل نملة مع الأخرى .

تعلمت من زكى نجيب أن لا أكتب إلا ما أ عتقده ولا أتحدث إلا عن إيمان بما أراه صواباً.. فأين نحن الآن من دروس زكى نجيب؟!..

لقد تحول أكثرنا إلى تجنيد قلمه لترسيخ التخلف الفكرى جرياً وراء بعض دول البترول ، وارتباط الدولار بالبترول ، وما أدراك ما الدولار، وسحر الدولار . لقد أصبحت مساحة الفكر التقليدى الرجعى والذى يمثل اللامعقول ، أضعاف أضعاف مساحة الفكر التقدمى المستنير ..

أصبحت الكتابة عن ابن تيمية وارتباط فكره بالاتجاه الرجعى تدر على أصحابها آلاف الدولارات ، وهذا على العكس تماماً من الكتابة عن أصحاب الفكر المستنير.

لم يتقلد زكى نجيب محمود طوال حياته منصباً من المناصب . وأقول إنه كان على حق تماماً، إذ نجد التعارض التام بين أمور المنصب والإدارة وبين الاهتمام بالفكر وقضاياه . ولن نجد فى تاريخنا المعاصر مفكراً من المفكرين استطاع أن يجمع بدقة وتفانٍ وإخلاص بين المنصب والجوانب الفكرية . لقد تعلمت ذلك من زكى نجيب محمود .

نعم ، لقد استمرت المناقشات بيننا سنوات طويلة زادت على ربع قرن من الزمان وأقول بأننى لا أتصور مثقفاً إلا وقد قرأ كل ما كتب زكى نجيب .. إنه هرم ثقافتنا العربية ..

ومن المنطقى أن نجد العديد من الكتب والرسائل الجامعية التى تهتم بفكره الثاقب وآرائه الناضجة ، وبعضها تحت إشرافى ، فى أكثر من جامعة من الجامعات المصرية . ومن المنطقى أن تدور مناهج الفكر العربى الحديث حول زكى نجيب وآراء زكى نجيب ، لأنه دخل تاريخنا الفكرى من أوسع الأبواب وأرحبها . لقد اعتز بمصر وأخلص لها إخلاصاً بغير حدود ، وكم كان حريصاً على أن يكشف لى أننا إذا وجدنا مجلة عربية تصدر فى هذا البلد أو ذاك ، فإن مصريتها تتمثل فى كون أكثر كتابها من المصريين .

كان النقاش بيننا مستمراً فى الصباح وفى المساء ، وقد اتفقنا فى أكثر الآراء واختلفنا فى قلة قليلة منها .. اتفقنا حول آرائه فى القضايا الكبرى كقضية الغزو الثقافى وأنها قضية زائفة ، وقضية التقدم العلمى والأخلاق ، وقضية موقفنا من الغرب .. كل هذه القضايا اتفقت مع أستاذى فى كل رأى قاله حولها . واختلفنا حول بعض الجزئيات ومنها دور بعض الأعلام القدامى ، فإذا كشف عن أهمية أبى حامد الغزالى فى مجال من المجالات ، فإننى أقول إن الغزالى يقف على قمة عصر الرجعية ، لأنه حارب الفلسفة والفلاسفة . واختلفنا حول موضوع ترجمة الكتب الطبية والتدريس بالعربية وكان يرى أنه من الضرورى ترجمة الكتب الطبية ويقدم الحجج الدقيقة على مشروعية هذا العمل وأهميته ، وكنت أقول إنه من الضرورى أن يتم تدريس الطب باللغات الأجنبية حتى لا نجد قصوراً فى معلومات الطلاب ، إذ أن الطب لا يتقدم حالياً إلا فى البلدان الأوروبية وأمريكا .

لقد كان هذا المفكر الكبير يتحدث عن طلابه أكثر من الحديث عن نفسه وعن فكره الخالد .. وهل أنسى ما قاله عنى فى أكثر من برنامج من البرامج الإذاعية والتليفزيونية ؟ هل أنسى ما كتبه عنى ؟ وكل سطر من سطور خطاباته يعد درة من درر أدبنا الرفيع . هل أنسى استقباله الحافل لكتبى التى قمت بتأليفها أو التى أشرفت عليها . ويوم صدر الكتاب التذكارى عن

مؤرخ الفلسفة «يوسف كرم» الذى ظُلم حيًا وظُلم ميتاً ، احتفل بالكتاب احتفالاً بغير حدود وذكر لى أنه من أفضل الكتب التذكارية التى صدرت بمصر وعالمنا العربى . وهذا القول يعد تشجيعاً لى بغير حدود ، لأن هذا الكتاب قد صدر تحت إشرافى بعد أن قام أستاذى زكى نجيب بتكليفى بهذا العمل فى فترة رئاسته للجنة الفلسفة والاجتماع بالمجلس الأعلى للثقافة .

ومن مصادفات القدر أننى فى سنوات التعليم الأولى كنت أقرأ لزكى نجيب محمود ، وحين حصلت على الدرجة النهائية فى الفلسفة فى السنة التوجيهية بمدرسة دمياط الثانوية، كانت الجائزة المخصصة لذلك مجموعة من الكتب من بينها كتاب «آثرت الحرية» تأليف كرافتشنكو وترجمة زكى نجيب محمود ، ثم يدور الزمن دورته وأجد الرجل الإنسان ، أجد زكى نجيب محمود يدخل علينا قاعة من قاعات الدرس بآداب القاهرة ليلقى علينا أول محاضرة من محاضراته على طلاب هذه السنة .

وإذا كنت قد كتبت مئات الصفحات عن فكر وفلسفة الرائد العظيم زكى نجيب محمود وعن كتبه، فقد وجدت اليوم واجباً علىَّ أن أكتب عن زكى نجيب محمود الإنسان من خلال علاقتى به ، علاقة التلميذ بالأستاذ والابن بالأب الفكرى . وأقول دوماً إننى أفخر بأننى عشت فى عصر زكى نجيب محمود .. إن هذا من نعم الزمان ومن أسعد الأشياء التى ستظل محفورة فى ذاكرتى طوال رحلة العمر .

من صميم حياته

د . منيرة أحمد حلمى

فى حوار ثقافى مع المفكر الراحل زكى نجيب محمود قبيل رحيله ، سأله الزميل الفاضل الأستاذ عبدالغفار مكاوى عن المقالة الأدبية والفنية التى ارتبطت باسمه . فأجابه : «إنك بهذا السؤال تلمس العصب من صميم حياتى وجهودى الأدبية . . لقد حاولت كتابة المقالة الأدبية من السن الباكرة . . ومن ثم يمكنك أن تقول على لسانى : من أراد أن يلمس العصب من حياتى الفكرية والوجدانية فليبحث عنه فى مقالاتى الأدبية قبل كل شىء»[١].

لقد كتب زكى نجيب محمود عن أدب المقالة كثيراً منذ نشر أول كتاب مقالات له وهو كتاب «جنة العبيط» ففى مقدمة هذا الكتاب أبرز شروط المقالة الأدبية وأوصافها . ومن أهم هذه الأوصاف ، مما يعنينا هنا ، أنها قريبة جدًّا من القصيدة الغنائية؛ لأن كلتيهما تغوص بالقارئ إلى أعمق أعماق نفس الكاتب أو الشاعر ، وتتغلغل فى ثنايا روحه حتى تعثر على ضميره المكنون... [٢] .

وظل يؤكد تميز هذا النوع من الأدب فى كثير من كتاباته وأحاديثه حتى سجَّله بقوة فى المطبوعة الزرقاء من آخر كتبه «حصاد السنين» . ففى هذه المطبوعة التى رسم فيها خريطة للمعارف المتنوعة وما يميز كلًّا منها ، والتفصيلات الداخلة فيها ، خص المقالة الأدبية وما تتميز به لكى تكون أدباً بجانب كبير من اهتمامه ، وأكد على أهم ما يميزها وهو أن تترك القارئ بانطباع فيه خصائص التمييز والتفريد ، وأن تنصبَّ فى شكل يدبره لها كاتبها . ويعنى بالشكل هنا خطة الترابط التى تربط الأجزاء بعضها ببعض ، ثم - وهذا هو ما يهمنا فيما نحن بصدده - أن تجىء حاملة فى سطورها شخصية كاتبها[٣].

هكذا تكلم زكى نجيب محمود عن المقالة الأدبية ، لكن ما ذكره فى حديثه مع الأستاذ عبدالغفار مكاوى كان المرة الأولى التى تحدث فيها عن موقع هذه المقالة من حياته وعن وقعها فى نفسه ، حيث جعلها العصب من صميم حياته ، وأتساءل إزاء ذلك : هل تتساوى مقالاته الأدبية فى بعدها عن العصب من صميم حياته كما ذكر فى حديثه؟ إن منها ما يبعد حتى ليلامس

عصب مجتمعه أو حتى عصب المجتمع العالمى ، وقليل منها ما يقرب حتى يلامس أعمق أعماق نفسه الفردية الخاصة . هذا النوع الأخير سأحاول أن ألقى الضوء على جانب منه فى هذه الدراسة ، وهو جانب لا يصور أعماق نفسه فحسب ، وإنما يصور وعيه بهذه النفس وموقفه منها ، رافضاً أو متقبلاً ، ناقماً أو راضياً ، فى كل مرحلة من مراحل عمره المختلفة .

اخترت سبع مقالات كتبها فى ذكرى ميلاده ، لم يعلن فى معظمها عن مناسباتها ، لكننى أستطيع أن أميزها ، فهى تلامس عصب حياته الفكرية والوجدانية ، وهى غنية بعناصر الشكل الفنى الذى تميزت به مقالاته الفنية ، ففيها الأحلام وفيها الحوار الداخلى بين فكرتين أو وجدانين يعتملان فى نفسه ، وفيها التصوير الدرامى ، ذلك التصوير الذى بلغ ذروته عنده فى كتابه «قصة نفس» وأعرض فيما يلى خلاصة لكل مقالة حسب ترتيب كتابتها مع تحليل مضمونها وما يدل عليه هذا المضمون .

أولى هذه المقالات مقالة «يوم الميلاد» ، يعجب فيها لمن يحتفل لنفسه بمثل هذا اليوم من حياته، فيقول : «لست أرى فى حياتى الخالية الخاوية ما يستحق أن أحتفل له إذا ما انقضى من الحياة عام ، بل إنى ما فكرت فيما بينى وبين الأيام من أخذ وعطاء إلا رأيتنى قد نلت من الأيام صفقة المغبون» (٤).

إنه يعبر فى هذه المقالة عن شعوره بظلم الأيام التى لم تعطه ما يستحق ، وقد عبر عن هذا الشعور فى مقالات أخرى له كتبها فى نفس المرحلة من حياته فى أواخر الأربعينات .

المقالة الثانية فى ترتيب هذه المقالات مقالة «شبكة الصياد» ، يرى فيها أن شبكته لا تصيد إلا القليل والصغير ، ويقول : «لكنى فيما مضى كنت ألقى التبعة على الحظ الأنكد كأنما هذا الحظ رجل من لحم ودم يضطرب معنا فى سبل الحياة ، فيعين هذا ويعرقل الطريق لذاك . فلما كبرت وازددت خبرة ودقة أدركت أن تبعة الصيد الهزيل واقعة لا محالة على الصياد ؛ فالشبكة من نسج يديه وموضع الصيد من اختياره . إن هذا الحظ المسكين الذى نلطخه بأوحالنا ونفرغ على رأسه قمامتنا مظلوم مغبون ، إنه برىء إلا بمقدار ضئيل جدًّا مما يصيبنا . ليتنى أعرف أين يسكن هذا الذى ظلمه الناس وقسوا عليه لأبعث إليه بقطعة من الحلوى اليوم -يوم ميلادى- تكفيراً عما ألقيته فى فمه من حنظل مر فى سالف الأعوام» (٥).

فى هذه المقالة يتراجع عن لوم الظروف الخارجية ممثلة فى الأيام -كما فى المقالة الأولى- أو فى الحظ ، ويبدأ فى محاسبة نفسه ، فقد أخطأ فى اختيار موضع صيده ، ولم يتراجع عن هذا الموضع .

يقول : «أمر عجب أن يدرك الإنسان مدى إخفاقه فى موضعه ، ثم يستحيل عليه أن يتحول عنه إلى غيره» .

بعد عشرين سنة تقريباً ، أفرغ أثناءها مكنون نفسه فى كتاب «قصة نفس» كما انشغل فيها بهموم مجتمعه يحاول تقصى أسبابها والإسهام فى محوها سواء فى مجلة «الفكر المعاصر» أو فى كتب : تجديد الفكر العربى ، والمعقول واللامعقول فى تراثنا الفكرى ، وهموم المثقفين .. عاد وطلع علينا بمقالة أخرى من مقالات يوم ميلاده ، هى مقالة «نوع من الغربة» [٦] يعرض فيها حديثاً بينه وبين نفسه فى صورة درامية تمثل حواراً بين شخصين ، يعجب أحدهما لطبيعة الإنسان الذى تتقدم به السنون حتى ليجاوز السبعين ، مما يؤكد أن الأنفاس الباقية معدودة، وأن سيره هابط على الجانب الآخر من جبل الحياة قد أوشك به على القاع ، ومع ذلك يدب ويسعى وكأنه لم يزل على السفح الصاعد .

لقد بدأت فى هذه المقالة تشاركه فى نفسه البائسة نفس تقاوم شعور الانتهاء والهبوط، لكنه مع ذلك ما زال يشعر بالغربة بين الآخرين الصاعدين وإن كان يشاركهم العمل والنشاط .

وتستمر المواجهة مع النفس ، بل ينتقل من المواجهة إلى المحاكمة فى المقالة الرابعة وهى مقالة «مثقف يحاكم نفسه» [٧] ، يقدمها فى صورة حلم ، ويسند الحديث إلى صديق قديم رحل عن الحياة منذ بضع سنوات ، يسأله فى الحلم عن أوراق تركها عنده وديعة ليتولى نشرها فى الناس . فى هذه الأوراق يحاكم الصديق نفسه فى شكل حوار مع النفس التى تسأله ماذا فعل فى دنياه بعد عمره الطويل ؟ . . وكيف سيتركها كما وجدها ؟ وترد عليه النفس قائلة : وماذا كنت أفعل وبضاعتى كلمات ؟ . ويستمر الحوار فيه محاسبة لعدم التزامه بما كان يعاهدها عليه ، ويرد مدافعاً : وماذا كنت أفعل وظروف التربة التى بذرنا فيها بذورنا وبذور سوانا من أصحاب البيان والعلم إنما تسقط على صوَّان أخرس وأصم ؟ نعم إنه صوَّان صلب عنيد ، ولكنه بسبب تلك الصلابة فيه وهذا العناد لا ينبت الشجر الأخضر .

فى هذه المقالة يرى أن اللوم لا يقع عليه وحده ، وإنما يقع على التربة التى بذر فيها أفكاره والظروف المحيطة التى تلقَّت هذه الأفكار . إنه نوع من التهوين على النفس ورد اعتبارها والاقتراب من الاعتراف بجهدها وبمكانتها . وهذا ما نجده فى المقالة الخامسة بعنوان «سبع سنابل» [٨] ، إذ يقدم فيها صورة درامية أخرى لحوار بينه وبين نفسه - ونفسه هنا تتجسد فى صديق بلغ الثمانين يتشابه معه فى الخلق وفى وجهة النظر ، ويشاركه فى الفكر وما يلزم عنه -

أراد أن يقيم له لقاء بسيطاً هادئاً بهذه المناسبة ، وإن كان يوقن أنه يعزف عن كل هذا البهرج الذى يفرح له معظم الناس . فلما فاجأه بالزيارة ، قال له : أتعرف يا صديقى ماذا ورد إلى ذهنى الآن وأنا أستحضر بلمحة سريعة صحبتنا الطويلة فى دفء هذه الجيرة المباركة التى جمعتنى بك؛ فتعلمت منها ما تعلمت؟ . . إنه قول الله تعالى فى كتابه الكريم : ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ﴾ [سورة البقرة : ٢٦١] ؛ فلقد بارك الله لك فى حياتك حتى لقد غزر حصادها وأفاد بها الألوف من العارفين بفضلك . إنى لأذكر تلك اللحظات البعيدة حين كنت يائساً من أن تنمو شجرة حياتك حتى تثمر ، وأذكر كيف كنت أعجب لهذا القول منك لأنك كنت تبدى اليأس فى اللحظة نفسها التى تدأب على العمل فيها دأباً لم يعرف السأم والملل والتعب . . ألا تزال موجة اليأس فى جوفك ؟ وها هو عملك كما ترى بعينيك ويرى ألوف الناس معك ، قد باركه الله ورعاه حتى عاد بالخير الكثير ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ﴾ ؟ .

فى هذه المقالة يصل مفكرنا إلى درجة لا بأس بها من الرضا عن النفس وتقبلها . لم ينشأ هذا الشعور عنده من تلقاء نفسه ، وإنما نبهه إليه صديقه ، فبدأ يتأمل إنتاجه وكم غزر هذا الإنتاج ووصل إلى الألوف من القارئين ، وكم أثمرت شجرة حياته بوفرة لم يكن يتوقعها . لكن هذا الرضا لم يكتمل ؛ فقد راح يفكر فى نوع هذه الثمار ، وجاء صدى هذا التفكير فى المقالة السادسة بعنوان «صانع الحروف» (٩).

فى هذه المقالة يحاسب نفسه كما اعتاد أن يحاسبها فى ذكرى مولده ، ويصرح فيها بمناسبة هذه الذكرى ، فيتحدث عن يوم لا يريد له الظهور ، فهو يوم دون سائر الأيام ذو لون وطعم ورائحة ، ففيه بدأت القصة فصولها . . إنه يوم يشبه أن يكون صورة مصغرة ليوم الحساب ، يوم يصر فيه على أن يقيم لنفسه الموازين ، لا عن عام واحد مضى ، بل عن شريط أعوامه منذ كانت له أعوام . وقد سأل نفسه فى هذا اليوم : ماذا صنعت لتغير من حياة الناس؟ وجاء الجواب بأنه رجل صناعته الحروف ، معلماً وكاتباً ، يجمعها ويفرقها ثم يجمعها من جديد لعلها تحمل إلى الناس نصيبها من رسالة التغيير والتجديد ، فإن لم تكن فعلت اليوم ، فربما تحقق لها ذلك غداً أو بعد غد .

هنا نلمح بارقة أمل يختتم بها هذه المقالة رغم بدايتها اليائسة ، وهذا هو الأمل الذى سجلته المقالة السابعة والأخيرة ، والذى تركه وراءه بعد رحيله ليخطف أبصار القارئين العارفين بين

الحين والحين فيبهرهم ويسدد خطاهم ، ويوضح لنا كيف ترك الحياة بنفس راضية مرضية . إنها مقالة «رواية وراويها» [١٠].

فى هذه المقالة ، وفى حوار درامى مع النفس ، كان هو الحوار الأخير قبل أن يغادر عالمنا ، أخذ يذكر صاحبه بيوم اكتشفا فيه اختلافهما فى رؤية الأشياء وتأويلها ، فما يراه أحدهما ورداً يراه الآخر ناراً حارقة . فى هذا الحوار أخذ يصور لصاحبه الدنيا بأنها أحرف الهجاء كلٌ يصوغ منها الرواية التى يشاء . ولقد صنع صاحبه من أحرفه رواية يائسة حزينة ، وصنع هو من أحرفه رواية راجية مستبشرة . نلاحظ هنا أن الصاحب أصبح هو اليائس الحزين وليس هو . وقد كان هذا الصاحب متفائلاً يشيع الأمل والتفاؤل فى نفسه ، كما رأينا فى المقالة السابقة حين أخذ يذكره بغزارة إنتاجه ، بينما أصبح هو فى هذه المقالة صانع رواية راجية مطمئنة مستبشرة .

أخذ بعد ذلك يذكر صاحبه بما رواه له ذات يوم عن الموسيقار «بيتهوفن» وهو على فراش مرضه ، وقد جلس بجواره بعض أصدقائه فالتفت إليهم وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة وقال : هيا الآن يا أحبائى أنزلوا الستار فقد انتهت الملهاة . . قالها ثم أسلم الروح . كما ذكر صاحبه بما دار بينهما من حديث بعد ذلك حول حياة الإنسان وهل هى ملهاة أم مأساة . ووضح له بعد ذلك أنه يعتقد أنه لا فرق فى وصف الحياة بين المأساة والملهاة ، فكلتاهما تصوير للإنسان ، الأولى تصوره فى متناقضاته والثانية تصوره وهو يسير نحو التهلكة ظانًّا أنه يصعد إلى المجد. أما تفسيره لما قصده «بيتهوفن» بوصفه للحياة على أنها ملهاة ، فهو أنه أدرك ما تحمله من تناقض بين عظمة موسيقاه وبين أن تنتهى بصاحبها إلى موت . فهذا التناقض يشبه التناقض الذى تُبنى عليه الملهاة . لكن رأيه فى ذلك هو أن هذا الموسيقار العظيم لم يفرِّق بين موتين : أن يموت هو ، وأن تموت موسيقاه . «فالعمل العظيم باقٍ مع الناس ، أما صاحبه فهو فانٍ بجسده حتماً محتوماً ولا تناقض فى ذلك؛ لأن العمل العظيم ليس ملكاً لصاحبه بقدر ما هو ملك للناس أجمعين»[١١] .

وهكذا بدأ زكى نجيب محمود مواجهته لنفسه بلوم الأيام التى لم تعطه إلا صفقة المغبون، ثم لوم الحظ الأنكد ، وبعد ذلك لوم النفس التى لا تتحول عن موضعها مهما أدركت مدى إخفاقها فيه . وقد تحول بعد ذلك إلى الشعور بالغربة وهو يدب ويسعى وكأنه لم يزل على السفح الصاعد من الحياة وإن تقدم به العمر . ثم يحاكم نفسه ويحاكم مجتمعه المتلقى لأفكار أصحاب البيان والعلم . وينتقل بعد ذلك إلى التهوين على النفس والاعتراف بما حققته ، ويغبطها على

سبع سنابلها ، لكنه يبقى غير قانع بما أنتجته هذه السنابل ، فهو مجموعة حروف لم تحقق رسالة التغيير والتجديد التى يريدها ، وإن كانت قد حققتها فى المستقبل . وأخيراً تطمئن نفسه ويرضى عنها فى حاضرها وبعد أن تفارق الحياة ؛ فنجده يعارض «بيتهوفن» فى وصفه لحياته بأنها ملهاة وأنها تحمل ما تحمله الملهاة من تناقض ؛ فلن تموت موسيقاه العظيمة لأن العمل العظيم باقٍ مع الناس ، ولأن العمل العظيم ليس ملكاً لصاحبه بقدر ما هو ملك للناس أجمعين .

حقًّا إن العمل العظيم باقٍ مع الناس ، وسوف تبقى مقالات زكى نجيب محمود موقظة للأذهان ، حافزة للوجدان ؛ ما دام هناك من يقرأ ومن يفهم ثم من يقدِّر ، بعيداً عن الأهواء .

* * *

الهوامش:

١ - زكى نجيب محمود : الكتاب التذكارى . المجلس الأعلى للثقافة . القاهرة ١٩٩٩م . ص٦٣٠ - ٦٣٢ .

٢ - زكى نجيب محمود : جنة العبيط . دار الشروق . الطبعة الثانية . القاهرة ١٩٨٢م . ص١٤ .

٣ - زكى نجيب محمود : حصاد السنين . دار الشروق . الطبعة الأولى . القاهرة . ص ٢٣٣ ، ٢٣٤ .

٤ - زكى نجيب محمود : شروق من الغرب . دار الشروق . الطبعة الثانية . القاهرة ١٩٨٢م . ص ٩ .

٥ - زكى نجيب محمود : شروق من الغرب . دار الشروق . الطبعة الثانية . القاهرة ١٩٨٢م. ص ٣٠-٣٢ .

٦ - زكى نجيب محمود : مجتمع جديد أو الكارثة . دار الشروق . الطبعة الخامسة . القاهرة ١٩٩٣م . ص ٢٠٧.

٧ - زكى نجيب محمود : فى مفترق الطرق . دار الشروق . الطبعة الثانية . القاهرة ١٩٩٣م. ص ١٩٨ .

٨ - زكى نجيب محمود : عن الحرية أتحدث . دار الشروق . الطبعة الثالثة . القاهرة ١٩٨٩م. ص ٢٤٧ .

٩ - زكى نجيب محمود : رؤية إسلامية . دار الشروق . الطبعة الأولى . القاهرة ١٩٨٧م . ص ٣٣٢ .

١٠ - زكى نجيب محمود : بذور وجذور . دار الشروق . الطبعة الأولى . القاهرة ١٩٩٠م . ص ٢٦٣ .

١١ - زكى نجيب محمود : بذور وجذور . دار الشروق . الطبعة الأولى . القاهرة ١٩٩٠م. ص ٢٦٦ .

obeikandl.com